النتاج الجديد

١ ـ لوركا: شاعر اسبانيا الشهيد

بقلم الدكتور علي سعد

دار المعجم العربي – بيروت ٢١٢ ص

•

مؤلف هذا الكتاب، أو ناقله بتعبير أوفى، غريب في بنائه الفكري، وروحه الشفافة، وأطوار إحساسه، والغرابة فيه انه يهتمّ اهتماماً بالغاً شديداً بكل ما هو شعري في كيان هذا المخلوق العجيب الذي نسميه «الانسان»، فاذا ما عرفت انه طبيب بيطري، لمست بوضوح، موضع الغرابة في اهتماماته الشعرية.

لقد سبق لهذا البيطري الطبيب ان عُني بدرس الشاعرية عند «ناظم حكمت»، وترجم الى لسان العرب بعض قصائده، وكان من جملة ما قال: «... اننا نعتقد ان الرجوع الى هذا النهج الشعري الذي يستمد عناصره ووسائله من واقع العيش وينابيع الحياة الشعبية، من شأنه ان يساعد على بث بعض الصحة والعافية في عروق ادبنا الذي افقرته وعمقته المذاهب التي نقلناها دون روية عن الادب الغربي من رومانطيقية الى رمزية وسريالية، مذاهب لم تخلق لمجتمعنا الحاضر، ولم تزد الهوة بين الشعب والادب الا اتساعاً».

وها هو ينقل الآن شاعراً اسبانياً اسمه لوركا الى العربية، ويحلل بعض آثاره ويحلل حياته واشعاره وشخصيته، ويقول: «...وما احرانا ان نتعلم من تجربة هذا الشاعر كيف يكون الالتفات الى المنجم الضخم الذي يقف في دائرة حواسنا، حافلاً بالشعر ونبض الحياة، وبكل ما يمكن ان يكون مادة للادب».

ذلك يعني ان للدكتور علي سعد اهدافاً ادبية خالصة يتوخى بلوغها من وراء هذه العناية الفائقة بشعراء يجهلهم ابناء العربية، فهو مأخوذ بذلك التركي الشاعر، لا لانه تركي ولا لانه شاعر، بل لان «شعره مظهر من مظاهر نضاله» وهو مفتون بهذا الاسباني الشاعر، لانه يعطي «ادباءنا دروساً في التضحية والتجرد والتواضع، مع المقدرة على التجدد الدائم، وبالتالي، مع الادلة الكافية على الغنى الذي لا ينضب بالمواهب المتنوعة، وعلى خصب الاغوار النفسية والخلقية» وهكذا... يقف الدكتور علي سعد معلماً للادباء والشعراء، مرة ثانية، من زاوية لوركا الاسباني بعد ان جرب الامر نفسه من زاوية حكمت التركي.

لا ادري كيف اصف هذا الموقف الذي يقفه صديقي الدكتور، فانا غير مطمئن الى ان يبلغ به الاهداف التي رسمها لنفسه، لاني اشك في هذه الذريعة التي يتعلق عليها سبباً الى تحقيق مثل تلك الاهداف السامية البعيدة، وأعني بالذريعة هنا ترجمة الشعر وتحليل شاعرية قائله.

انا افهم ان يعجب الاديب بشاعر، وان ينقل روائعه من لغة الى لغة، وان يعرّف قومه واهله به تعريفاً عاطفياً. فيه انس ومودة وحب، بيد اني لا اجد من فائدة في تقديمه كمثال يحتذى، ونهج يتبع، ورائد يؤتمن... والسبب في ذلك بسيط وواضح، وهو ان الشاعرية الصق المواهب بالذات القومية، بارض الشاعر بسمائه، بتاريخه، بلغته، بطرائق تعبيره، بروح شعبه، واخيراً بعصره، فلا يصح لاحد ان يتخذ من فاليري إماماً، ولا من شكسبير، ولا من ت. س. إليوت، حتى ولا المتنبي وشوقي. والذين يأتمّون فيما ينظمون، بفلان او فلان من الشعراء، هم الذين أقعدوا المواهب القائمة في نفوسهم، وغيّضوا الينابيع الدافقة من قرائحهم!!

هذا من حيث الغاية... أما الموضوع نفسه، اي فيدريكو غارسيا لوركا، فلا اكون مغالياً اذا قررت ان الدكتور سعد وفق الى أبعد حدود التوفيق في ثلاث نواح: الاختيار، والعرض، والترجمة. وماذا يطلب الى الناقل اكثر من ذلك؟ وهل وراء هذه النواحي، في هذا الحقل زيادة لمستزيد؟

تحدث الدكتور عن مولد الشاعر ونشأته، وعن قصائده واناشيده، وعن ثورته ضد الطغيان، وعن مسرحياته، وعرض اخيراً «العالم الشعري عند لوركا»، بعد ان وصف مصرعه على يد السلطات، وموعده مع الموت، وانهى دراسته بترجمة إحدى مسرحيات لوركا الشهيرة، وهي «عرس الدم»، ولم يفته ان يوضح العلاقة التي لمسها – وهو العربي – بين عبقرية لوركا الشعرية وتاريخ الاندلس المندى بالاريحيات العربية، والصبوات العربية، وشمائل الفروسية العربية الشهيرة.

وهنا، اود ان اشير الى قضيتين مهمتين اثارهما الدكتور في كتابه : اولاهما ، هـذا السؤال الذي اورده في معرض الحديث عن استشهاد لوركا : « هل يعقل ان يُحسّ الانسان مصرعه قبل وقوعه؟» ثم يجيب عنه بقوله: « انني أكاد اعتقد ان ذلك ممكن ، عندما استعيد آثار فيديريكو غارسيا لوركا ، وأتمثل مصيره الفاجع ، لولا ان في الاعتقاد بالمقدرة على التنبؤ انكاراً للتفكير العلمي الذي اؤمن به كل الايمان ! »

كنت أتمنى ، في هذا المقام ، ان يعالج الدكتور موضوعه هذا ، بأقصى ما يستطيع من الاسهاب، لاسيما ان لديه في ادب لوركا ، على غناه وتنوعه، مادة لا تنضب لبحث هذه القضية، كما كنت اتمنى ان يستعين العلماء الاختصاصيين الذين اهتموا بهذه الدراسات امثال كميل فلاماريون في مؤلفه الضخم « الموت واسراره » والكسيس كاريل في « الانسان ذلك المجهول » وغيرهما من الباحثين في علم ما وراء النفس ، اذ لو فعل، وقارن بين آراء العلماء وأحاسيس لوركا ، لاخرج لنا بحثاً من امتع الابحاث وأخصبها في تفسير الاجواء الشعرية وعلاقتها باحداث القدر ، لاسيما انه تناول القضية ، ووفق الى عرضها ، ولكنه لم يقدم لها الحل المدروس .

والقضية الثانية هي ان الدكتور أهمل الجانب الاجتماعي في ادب لوركا ، أعني طريقة لوركا في تناول الحياة الاجتماعية التي تقلب فيها ، وعاناها ، وعبر عنها . وقد تكون مسرحيته « منزل برناردا » وهي آخر مؤلفاته ، افضل تعبيراته التي نبحث عنها. وهذه هي التي لم يعرض لها الدكتور مفصلاً، بل مر بها مرور عابر مستعجل !

ومن غريب المصادفات انني لم اكن اعرف لوركا الا من خلال تلك المسرحية ، قبل ان يخرج الدكتور سعد كتابه عنه ، وهو يصور تعنت أرملة مات زوجها – ولديها خمس بنات – في منعهن من الزواج ، وتسلطها عليهن ، وشحها الشديد في الانفاق عليهن خوف تعرضهن للرجال ، ووقوعهن فيما يسيء الى شرف الاسرة، وكان موقفها هذا سبباً في تعلقهن جميعاً بشاب كان يطوف بهن خلال الليل ، ونشوء حالة مرة من التباغض والتحاسد بين الاخوات الخمس ، انتهت بانتحار صغراهن، وكانت أجملهن واذكاهن ...

هذه الاجواء الاجتماعية المريرة التي تشبه اجواء لبنان والعراق ومصر وسوريا وسائر البلاد العربية هي التي كنت اتمنى ان يعنى الدكتور بايضاحها . وهي – وان كانت بارزة في المسرحية التي نقلها برمتها الى العربية ، اي « عرس الدم » – فقد ظلت بحاجة الى معالجة الدكتور ، وإبراز ما فيها من وهج وقوة وتشابه بين مجتمعاتنا العربية الراهنة، ومجتمعات الاندلس .

بقي علي ان اشير الى هذا البيان الحلو الناعم الذي استخدمه الدكتور علي سعد في الترجمة ، فانت اذ تقرأ لوركا بالعربية ، او ناظم حكمت ، كما ينقلها ذلك الطبيب البيطري ، تجد انك امام شاعر يشبه أبا القاسم الشابي في بيانه العذب وألفاظه المترقرقة، وتحسب انه لا يعرف شيئاً من الزولوجيا، والبيولوجيا حتى ولا من البيطرة...

●

٢ ـــ نيسان

بقلم نقولا قربان

دار الكاتب العربي ، بيروت – ٢١٦ ص

●

ليس الشعر المنثور بدعة في الادب العربي ، فقد عرفه قدامى العرب من الجاهليين ، كما عرفه من بعدهم كل عصر من عصور التعبير . وليست خطب قس بن ساعدة ، وسحبان وائل ، وحكم اكثم بن صيفي ، وأسجاع المولدين من بعد ، واساليب الاندلسيين الانشائية غير ضروب متنوعة، متطورة من الشعر المرسل . وهذا هو النوع الادبي الذي يحتل نقطة الوسط بين الشعر والنثر والذي دعاه الاستاذ فؤاد افرام البستاني « الانشاء » في اكثر دراساته الادبية .

ولكن الادباء المحدثين تلقوه ، اول ما تلقوه بشيء من الدهشة والاستغراب ، لانهم اعتبروه خروجاً على المألوف من موسيقى الشعر العربي ، تلك الموسيقى التي ألفت القافية ، ولم تحسن التخلص منها بعد . ولذلك ، اخذ النقاد في مصر ولبنان ، واخيراً في العراق ، يعنون بدراسة استاطيقية الشعر، من هذه الناحية، ولم ينتهوا بعدُ الى رأي نهائي قاطع.

ها كم ما جاء في عدد نوفمبر من مجلة «أبولو» عام ١٩٣٣ ، من بحث كتبه الاستاذ رمزي مفتاح عنوانه « الشعر المرسل وفلسفة الايقاع » ، قال : « إهمال القافية له ميزتان : حرية التعبير عموماً ، او على الاقل في بعض محاولات القول ، وثانياً ، السمو بالشعر عن صناعة لفظية فانية قريبة الغور ، او على الاقل تخفيف العبء عن غير المتضلعين من اللغة تضلعاً لا يستلزمه النظم في اي لغة اخرى ».

والكتاب الذي اتحدث عنه الآن لمؤلفه الاستاذ نقولا قربان مجموعة أشعار منثورة ، ذات وحدة في الموضوع تؤكد

ما قاله الاستاذ مفتاح قبل عشرين عاما وما يزيد عليها .

ولم يهمل الاستاذ قربان العودة الى قضية الشعر المرسل ، ودرسها من جديد على ضوء التقدم الاستاطيقي الذي احرزه الادب العربي في هذه الفترة من الزمن ، فقد وضع مقدمة في ٢٢ صفحة لقصائده المنثورة اوضح بها هذا النوع من الانشاء ، وطريقته في التعبير عن أحاسيسه وافكاره، قال فيها :«.. ولا تحسبن ان نيسان نوعٌ من الترف الفكري، ومن أدب الموائد المهترئة ، وادب المستنقعات . بالعكس ان هذا الكتاب ليعرضن بين يديك مشكلة الاخلاص الذاتي ، والصدق الفني ، فانك اذا احببت وردةً واحببتها بصدق ، واذا احببت عصاً او كتاباً او امرأة وأحببتها بصدق ، لتجدن في « نيسان » صدى لروحك ، وصورة لحبك ، ومعنى من معاني ذاتك الخالدة العظيمة ... ».

تلك هي المشكلة ، مشكلة الصدق في التعبير ، التي أملت على الاستاذ قربان أسلوبه في الانشاء ، وهو – كما أحس – على صواب في كل ما يستنتج من تلك المشكلة ، اي في كل ما يبدي من ملاحظات في مقدمته الطويلة .

ذلك بان الصدق في التعبير يستلزم الحرية ، ولا يكون حراً ، وبالتالي لا يكون صادقاً ، من تقيد بالوزن والقافية ، وخضع خضوعاً اعمى لمقتضيات العروض، وتفاعيل الاوزان، وضرورات النحو والاعراب ، اذ لا بد ان يسيء الى حقيقة ما يشعر ، حين يُلزم هذه الحقيقة إلزاماً بالقافية والرويّ والبحر ، ليعبر عنها ...

هذا لا يفيد، انعلى الشاعر ان يتحلل من قواعد اللغة وقوانينها الصرفية والبيانية والنحوية ، ليكون صادقاً ، بل عليه ان يتحرر من نظم الشعر حين يسيء هذا « النظم » الى صدقه في البيان واخلاصه في التعبير. وذاك ما فعله صاحبنا نقولا قربان في « نيسان » !

قلت : ان « نيسان » مجموعة قصائد منثورة، وهذا غلط، فالقصائد في مجموعها قصيدةواحدة ايقظهاالحب في قلب ناظمها، حب «نيسان» نفسها وهي عند نقولا كليلى عند قيس، وعفراء عروة ، وبثينة عند جميل .

إنزل الى الاعماق ، وابحث عن هذا الحب المشرق ، الرائع ، المخلص الصادق ، في اطاراته الاجتماعية ، وقوالبه الفنية ، ومظاهره النفسية ، تجده لبناني الجو ، عاطفي الافق، منسرحاً في تأملات فلسفية وخواطر حكمية ، بين افياء القرية اللبنانية ، ومروجها الصغيرة ، وكرومها واكواخها.

اليك هذه العناوين،التي تتوّج صفحات الكتاب:الصنوبرة، خاتم اخضر، الفسطان ، العليقة ، فناجين ، المحرمة ، الفوطة ، بساط ، برنيطة ، البرتقال ، سلة عناب ، شلال ، مطحنة ، كوز الرمان ، الشبابة ، الخ ...

هذه العناوين وحدها ، لقصائد منثورة ، ينتظمها حب واحد ، في وصف فتاة واحدة ، في جو واحد ، على تنوع الحالات والخواطر والاحاسيس ، تشير الى مدى ما يعتمل في قلوب الشباب، من حنين الى ايجاد ادب شعبي جديد تفهمه المرأة في لبنان ، وفي غير لبنان ، ويتأثر به المجتمع ، دون ان يسيء الى البيان العربي . واحسب ان نقولا وفق توفيقاً بارعاً في اعطاء هذا اللون من الادب منزلته التي يستحقها ...

عبد اللطيف شراره

نجد الحديث وملحقاته

تأليف المرحوم امين الريحاني

دار ريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ، ٤٥٧ ص

●

لا يحتاج امين الريحاني الى تعريف ، ولعل مؤلفه « ملوك العرب » خير ما اخرجته المطابع العربية على الاطلاق في النصف الاول من القرن العشرين. والكتاب الذي نحن بصدده الآن لا يقل عن سلفه من حيث الدقةوالتجرد والنظر الصائب والاتزان ، وان قلّ عنه من حيث الموضوع وزاد عنه من حيث الصعوبة ، لان كل مؤرخ للجزيرة العربية اليوم يصطدم بقلة المصادر الموثوقة وبصعوبة تتبع مرافق الحياة البدوية وتشعباتها وتنازع القبائل ومشاحناتها. والحق يقال ان الريحاني على الرغم مما اعترضه من صعاب ، قد وفق في جمع المعلومات وغربلتها وتنسيقها ثم في تدوينها في اسلوب شيق قريب وفي التعليل والتحليل ووضع الامور في قرائنها التاريخية ، فجاء الكتاب صورة رائعة من الفسيفساء ، مرتبة الاقسام محكمة التكوين .

وقد اعتمد الريحاني على بطل روايته عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، في الدرجة الاولى ، وعلى الوثائق التي وضعها السلطان في متناول يده ، ثم على ما سبق ودوّن من الاخبار في تاريخ نجد ، واهم ذلك « روضة الافكار » لحسين ابن غنام الحنبلي و « علو المجد في تاريخ نجد » لعثمان بن عبدالله ابن بشر و « عقد الدرر » لابراهيم بن صالح بن عيسى .

وقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب عام ١٩٢٧، وهذه هي الطبعة الثانية . والكتاب يتناول ثلاث نبذات : الاولى في نواحي نجد ، والثانية في سيرة محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية ونسبه ، والثالثة في آل سعود منذ نشأتهم حتى استيلاء محمد بن الرشيد على نجد عام ١٨٩٠ ، وتستوعب هذه جميعها ١٠٦ صفحات اي ربع الكتاب تقريباً . اما القسم الاكبر والاهم فيتناول سيرة السلطان عبد العزيز آل سعود من يوم هبّ الى استعادة ملك آبائه واستولى على الرياض عام ١٩٠٢ الى يوم ان نودي به ملكاً على الحجاز عام ١٩٢٦ — ربع قرن مفعم بالحوادث والمغامرات والدسائس والمؤامرات، قبلية ودولية على السواء ، لا تنجلي الا بعد ان تسيطر على الجزيرة العربية ارادة واحدة هي ارادة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود . والحق يقال انها قصة تضاهي قصة عبد الرحمن الداخل في مغامراتها وروعتها وان لم تضاهها في نتائجها بعد .

ولا يتناول الكتاب شيئاً بعد عام ١٩٢٦ . والحقيقة ان لا حاجة الى ذلك ألبتة ، لان جميع الحوادث والتطورات التي تبعت المناداة بعبد العزيز بن عبد الرحمن ملكاً على الحجاز كانت النتيجة المحتومة للحوادث التي وقعت خلال ذلك الربع من القرن ، وهي دونها اهمية وشأناً ولا يبرز منها الا حدثان هما تصفية ثورة الدويش واكتشاف آبار النفط في مقاطعة الحسا. ولولا الملابسات الدولية التي رافقت الصراع العربي في خلال ربع القرن هذا لبقي تاريخ الجزيرة تاريخ أيام لا تختلف كثيراً عن أيام العرب المعروفة — صراع قبلي للسيطرة على المراعي واحواض الماء ، ونشر عقيدة بين الاعراب ، وتطاحن على الزعامة بين الامراء . غير ان الحرب العالمية الاولى قذفت بالجزيرة العربية الى الميدان الدولي واكسبت الصراع القبلي صبغة دولية. ومع انه من العبث اليوم ان يتساءل المؤرخون عما كان سيمتخض عنه صراع عبد العزيز بن عبد الرحمن مع خصمه الهاشمي لو رضخ الحسين بن علي للسياسة البريطانية في فلسطين ، فان موقف الحسين من تلك السياسة قد حرمه في الواقع من معاضدة بريطانيا في احرج الاوقات وافقده في النهاية عرشه . زد على ذلك ان هذه الخصومات قد اضعفت مركز الحكومات العربية جميعها امام الدول الغربية بعيد الحرب العالمية الاولى ولا تزال .

نبيه أمين فارس

تحت قناطر ارسطو

بقلم امين نخله

مطبعة جريدة الجريدة — ١٦٠ ص.

●

« تحت قناطر ارسطو » كتاب قيل عنه ، وهو بعد « قيد المناسم والنواجذ من الآلة » ما يحمل ارسطو الى تحت قناطر امين نخله !

وما كنت لاقبل « على ذلك الحشد من الخواطر » لو علمت — وعفو من كتب عن الكتاب قبل الولادة وبعدها — ان قريحة الامين « المستظلة قناطر ارسطو في الصفحة الاولى من الكتاب » ستهبط في الكتاب نفسه على « الممرع من حدائق افلاطون » وسقراط وغيرهما من فلاسفة الاغريق « فتكفر نفسي بالطين » !

فعندي ان اكفر بالف ارسطو ، وبالف ألف افلاطون ، على ان اكفر بالطين وهو بعضي .

وفي الكتاب ما يدفع الكفر ببعضي الى الكفر بغيري.

●

وبعدُ ، حسب الامين من « الفتح الفكري » قوله في خواطره المترجمة « بين الكرة والطست » ان النظر « الى ما قيل دون النظر الى من قاله ميزة عصرية لها مساوىء متعددة ، اولها فقدان الثقة عند القارىء ».

فان « معرفته للكاتب وطبقته ، الخ ... ليست ، عند القارىء ، بالشيء القليل » . و« أحسن اخبار الكاتب هو هذا الذي وضعه بيده في تضاعيف مؤلفاته » انتهى .

ومن نعم الامين علينا انه وضع بعض اخباره بيده في

ثضاعيف كتابه . ففي « حول القناطر » - لاتحتها - رسالة وجهها الامين الى توفيق عواد ، يوم نشر اولى قصائده : « زورق الاحلام » ، قال له فيها : « كنت ، يوم اقرأتني « الزورق » في حيرة مما أجيب به سيد كتاب فرنسة ، شارل موراس ، على رسالة منه القيت الي ، في ذلك اليوم ، وهي التي فيها يقول :

« لا تستطيع فرنسا ان تجحد فضلاً ، للادب العربي ، على التمدن » ، فوالله ، اني بقيت ، طول ذلك النهار ، في حيرة مما اجيب به الرجل ، على ما ساق الي في كتابه ، حتى لقيتكَ ، في المصادفة ، واقرأتني القصيدة . ففرجت عني كثيراً فلما كتبت بالجواب الى موراس ، عرفت كيف افتح عيني ، فلا اغضها من كلمته العظيمة ... »

ولا جرم ان الاعتراف بصداقة موراس هو من سوء حظ الامين ! وفي الحقيقة ، ليس من الخير للامين - وغير الامين - ان ينبش خبر هذه « الصداقة » ، وان يقدم الكتاب الى موراس بكلام يعتبر قمة الصناعة ؛ ففي الصفحة الاولى من الكتاب كتب الامين الى موارس يقول :

« ليس من العجب ، في شيء ، ان يقترن اسمك ، في هذا الكتاب ، باسم نابغة الطينة البشرية (ارسطو) ! فانك في مجد العقل حيث يباهي بك الجنس الفرنسي اجناس الخلائق .. »

« فاذا كان لكتابي علاقة باسم « المعلم الاول » ، من حيث احتفاله بالكتب ، وفرط انكبابه عليها .. فالاجدر ان تقوم العلاقة باسمك ، ها هنا ، قيامها باسم صاحبك . اذ ان كتابي يتصل به (بارسطو) بالتسمية ، لا غير ، ويتصل بك بالوجدان وخطرات البال . » ? ! - انتهى .

قلت ليس من الخير للامين ان ينبش خبر هذه الصداقة ، وان يقدم الكتاب الى موراس بكلام يسيء اليه ، من حيث يدري - او لا يدري ! فموراس القائم في مجد العقل ، « حيث يباهي به الجنس الفرنسي اجناس الخلائق » يعتبر سبة على فرنسة وعلى الخلائق . ففي المرحلة السوداء من حياة العالم - عهد اطبقت الغمة على اوروبة ، واجتاحت جحافل النازي فرنسة - انتصب موراس داعية لهتلر . وتولى « حملة من التشهير والافتراء والنميمة بحق بني وطنه ، اودت بحياة الكثيرين ، واودت بالكثيرين الى ظلمات السجون ، واتاحت للنازيين فرصة اذاقة الفرنسيين ما لم يذوقوه ، في جميع حقب تاريخهم ، من الوان الظلم والعدوان »

فلما زالت الغمة ، حكم الشعب الفرنسي على موراس بالاعدام (فبالسجن المؤبد) واسقط حقوقه المدنية ، وطرده من حرم الاكاديمية الفرنسية .

تلك صفحة « مشرقة » من تاريخ موراس الذي يتصل به كتاب الامين بالوجدان ، وخطرات البال ! اما ارسطو فهو براء من كتاب الامين ، باعتراف الامين نفسه في مقدمته حيث يقول : « الكتاب يتصل بارسطو بالتسمية ، لا غير » . وتلك من نعم الامين على ارسطو .

●

وبعد ؛ غرض تلك المقدمة ان ينال الامين « الثقة عند القارىء » - وقد نالها - وان تزول مساوىء « النظر الى ما قيل دون النظر الى ما قاله » - وقد زالت لله الحمد - قبل الانتقال الى « بين يدي الكتاب » .

والكتاب فصول في « اصول الادب » ، وما ينبغي لحفظ نصابه ، وفي اشياء اخرى لا تعوزها المقدمات .. كتبت يوم تحركت في بيروت ، والقاهرة ، قضية النمط ، بين الحديث والقديم ، وتوزيع القسط ، بين المعنى والمبنى . »

واراء الامين ، في هذه المسائل ، ضربان : ضرب يقدس الاراء الاصولية - المدرسية ، النازلة على الرحب ، في كتب البلاغة والأدب : وضرب يمجد الاراء الثائرة على العرف ، الموزعة في « اوراق » الشذاذ من مشاهير الغرب !

وفضل الامين ، في ذا ، يقوم على صب هذه الاراء في قالب يعتبر قمة الصناعة في الادب العربي الحديث . وهنا ، لا بد من تسجيل قول احدهم : « ان الأمين لأخلد باسلوب البلاغ منه بموضوع البلاغ ، وانه لاقرب الى القلب والحس بالعبارة منه بالرأي » .

وهذا للقول ان الامين الذي نسخ ما نسخ ، وقع ، من حيث لا يدري ، في تناقضات نالت من جلال الرأي كثيراً ! فالامين - حفظه الله - يرى في « مشادة العبث ، القائمة في الادب ، بين قديم وجديد » الا يقال : قديم ، ولا يقال جديد ، فالادب ليس « ابن يومه الحاضر ، حتى تعد مطالب الحياة منه في باب الاتيان بشيء جديد » :

بكلام آخر : استعار الامين صوت سليمان وقرر : « لا جديد تحت الشمس ! » فاتحا باب الاجترار واسعاً .

والعجيب في الامر ان الامين نفسه يقول في « ادب الصومعة » : انه « لف ودوران حول غرض ، هو ايسر من ان يعد في الهموم ، فلا غوص على لجج النفس ، ولا التفات

الى محجب من وجوه الحياة ، ولا كدح في صعيد الفكر » و « الادب الحق غير ذلك » . « هذا شكسبير ، نفسه ، وهو نادرة الازمنة ، تكاد العيون تتضافر ، اليوم ، على اوجه العالي .. ذلك ان هذا الادب « المطنب » ، وهو الذي لا ينغمس في معمعان الحياة الى الرّكب ، قد بات في زماننا مزلزل القدم . »

فهنا يعترف الامين ان ثمة محجباً من وجوه الحياة وان على الادب ان ينغمس في معمعان الحياة الى الركب فلا يتأثر مثلاً النهج الشكسبيري « المطنب » الذي بات في زماننا مزلزل القدم ! بكلام آخر : الاجترار ليس من هموم الأدب . فالحياة حافلة ، ابداً ، بالجديد !

هذا،وفي « موضوع الادب — بين الحادثة الشاذة والحادثة المبتذلة » يستعير الامين صوت « اوسكار ويلد الكاتب الانكليزي الذائع الصيت » وصوت « جاك ده لاكروتل الكاتب الفرنسوي الشهير » للقول : ان « من العجب ان يكون الادب مرآة الحياة .. حتى يستطاع القول ان الاخذ، مثلاً ، بالحادثة اليومية التي تقع في الحياة ، ليس في شيء مما يلحق بالادب. فالعمل الفني الذي يلتفت فيه الى الحقائق الماثلة في العيون ، ابداً ، ليس في باب الابتداع شيئاً ! اذ ان الاخذ بالحادثة اليومية ، وجري المعتاد ، يفضي الى ادب دنيء ، ولا ريب ! »

ان « الادب هو اعجب من الحياة نفسها ! واعجب ما فيه ان موضوعه ليس من سياقها المعتاد، ولا من حوادثها المتشابهة »

لكنه في « ادب الصومعة » يكذب قوله فيقرر : « ان الادب مرآة الحياة : مجالها مجاله، واطارها اطاره ولا ريب . وكل ادب لا يتراءى فيه وجه الحياة على تمامه، هو مرآة ناقصة، طرحها اجدر من الابقاء عليها .. ومن العبث ان لا يجعل الادب في تقليد الحياة — حذوك الشيء بمثله — وعفا الله عن اوسكار ويلد حيث يقول ، في بعض لطائفه : « الحياة تقلد الادب ، ولا يقلد الأدب الحياة » .

وعلى ذكر « اوسكار ويلد » نجد الامين يستعير ، غالباً ، صوته فيورد له في «موضوع الادب» قصة «الريفي والحورية، والخيالانات، وبنات الماء» للقول ان الصدق ليس من الادب. فاذا أتى على ذكر ابيه مجد الصدق بقوله : « الصدق في الادب يرافق الطلاقة جنباً الى جنب » !

وتلك من اعاجيب الامين حقاً !

والامين ، بعدُ ، يرى « ان الصنيع الفني ينهض بقائمتين : المعنى من جانب ، والمبنى من آخر ، وان الفن كله انما هو في قيام هذا النهوض... فالذين عاشوا على المعاني ، في كل ادب، من آداب الامم، وصرفوا اقلامهم عن الديباجة قد تقلص ظلهم . » وهكذا يقال في الذين عبدوا الاوعية ، وانصرفوا عن الاشربة » .

وكلمتنا للامين، في هذا المجال ، هي أن نقل الآراء الصائبة شيء والتقيد بها شيء آخر . فالامين في « ابتداعاته » يعبد الاوعية وينصرف عن الاشربة. وتلك مفكرته الريفية تشهد.

ففي باب « البضاعة الريفية » يعدد : عندنا في بلاد الجبل العناب ... وعندنا الخرنوب وكأنه قرون ليلى في قصيدة المجنون .. وعندنا الجوز واللوز.. وعندنا كراز الراعي وهو اقرن ولا اجم ! »

ولا ادري ما نصيب هذه الدرر من الفن الناهض بقائمتين: المعنى من جانب والمبنى من جانب !

وللامين في « قناطره » خواطر « في اوانها » منها ذي الخاطرة : « يلوح لي، في بعض المواضع ، ان الحياة اكبر سناً من الادب بقليل » .

ورحم الله بول ڤاليري القائل :

« La vie est à peine un peu plus vieille que la mort ».

فالامين قد استبدل لفظة « الموت » « بالادب » ونسب الخاطرة الى نفسه قبل ان يجف تراب قبر ڤاليري !

قلت : ان ادب الامين هو قمة الصناعة في الادب العربي الحديث . واضيف هنا : الصناعة غير البلاغة :

فالاولى ادب لفظي صرف والثانية صنيع فني ينهض بقائمتين: المعنى من جانب والمبنى من جانب .

والامين طوّع المبنى وفاته المعنى اعني : عبد الاوعية وانصرف عن الاشربة .

و « الادب الحق غير هذا » .

موريس كامل

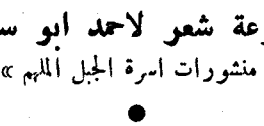

قصائد دافئة

مجموعة شعر لاحمد ابو سعد

« منشورات اسرة الجبل الملهم ».

●

لغيري ان يفتش عن الدفء العاطفي في قصائد « احمد ابي سعد » وان يقف مشدوهاً امام ترف اللفظة المشحونة بالزخم،

وغنى النبرة المثقلة بالنغم ... اما انا ، فاعرف انه نبت هناك ، في ارض البؤس والحرمان ، واعرف ان الحيـــاة قست عليه وامعنت فقذفته الى المدينة الكافرة ، لتسحق هذه ، بلا رحمة احلامه كيافع ، وكبرياءه كانسان .

انه من طينتنا ، نحن الذين نعيش لننهش قلوبنا كل يوم ، فهل علينا من ضير اذا تلمسنا على وتره المبحوح ، الشهقة التي تموت مخنوقة في صدورنا ، والغصة التي تجثم خالدة في حناجرنا !

ويبوح هذا الوتر حين يبوح ، بنوع من القلق الوجودي لا يعانيه الا المحروم الذي يطل على الحياة من كوى الحظ العاثر :

ويحي من باك ومن شاعر ... يأسى على حظ له عـــاثر
افيق والآهات مذبوحة ... على فمي والنوح في خاطري
ترودني الذكرى فلا تلتقي ... غير فتى مضيّع حـــائر
في جسمه سقم وفي قلبـــه ... التـآم من ليل بلا آخر
اذا رنا جمّع احـــزانه ... وبثها من لحظه الفـــاتر
مرارة التســـآل في ثغره ... ولوعة الشكوى على الناظر

بين مرارة التسآل عن الغد الذي يلوح اسود النقـــاب ، ولوعة الشكوى من الحاضر الذي يبدو دامي الانياب ، يقف الشاعر المعذب حيران لا يدري اين المفر ؟ تعذبه هذه الحيرة ، وتحاول ان تفتت ما اوتيه من كبرياء المقاومة ، فيتلفت بكل ما في كيانه من تحرق الى الخلاص ، يتلفت نحو امسه الطفل ليفر اليه من غده وحاضره :

ليت يظل الطفل لي احتمي ... في رغده من عقلي السادر
أفر من عيش أناسيـــه ... كاسرة كالنمـــر الكاسر

ولكن أمسه الطفل ، على ضآلة افراحه ، يفر منه ، وتنتصب في وجهه « ليت » هذه الاداة المتحرقة ، تصفعه بالواقع المر وتسخر من احلامه ، فتبدو لعينيه بجبروتهـــا اللفظي ، اشد قسوة من العيش ذاته ، لانها ايماءة التعبير نحو استحالة زمنية واخرى تكوينية ، لا يستطيع إلا ان يقف « التمني » امامها مكتوف اليدين مغلول السلاح .

غير ان شاعرنا لم يستسلم . لقد أبى ان يركع ... بل اخذته عزة الشاعر فجمّع ما تبقي لديه من طاقة الكفاح ، واعلن التمرد ... التمرد على واقعـه ... على آلامه حاسباً انه بالتمرد وحده يستطيع ان يواجه الحياة :

«ما العمر إلا غفوات فقم ... وانقض سبيل العيش او غامر»

وسرعان ما تنصرم لحظات التمرد هذه ، لتسلم الشاعر من جديد الى احزانه فاذا به يكتشف أن تمرده لم يشفه من هـذه الاحزان النابعة من الحياة ، وانه كان ينبغي له ، ليتخلص منها ، أن يتخلص من الحياة نفسها أو أن يعيش بلا وعي ، فيتلف اعصابه ، ويعطل ، عن قصد ، مراكز الحس فيه ... وكلا الدواءين مر ، وكلا الحلين انتحار خسيس يحمل قبح المذلة وجبن الهزيمة .

ويتلفت شاعرنا حواليه يفتش عن العزاء خلوج ذاتـــه ، ويحاول أن يهرب من نفسه ، من عوالم الهم التي انطوت فيـه وانطوى فيها ... ولكن عبثاً يفتش في العـالم الخارجي عن السلوى ، وعبثـــاً ينشد العزاء في دنيا الناس فهو فيها وحيد غريب :

« انا وحدي ، وحدي غريب عن الارض
غريب وبي شقـــاء الغريب
أنا وحدي في امتي وترى اهلي ووحدي في لوعة المصلوب »

ويجنح به الشعور بالوحدة والغربة الى نحو من تشاؤميـة المعري ولا أدريته فيشكو على طريقة رهين المحبسين :

« أنا مالي ؟ ليس لي ذنب سوى أني ذنب
أنا لي قلب فهـــل أشقى لأني لي قلبُ ؟
كيف امضي ؟ كيف ؟ انحاز لاستهدي فأكبو
أنا بـــين الحس والفكرة إعصار يهب »

ولكن هذه المعرية لا تروق للشاعر على ما يظهر ، فهو لا يريد أن يفلسف الآن ، ولا أن يتخذ من الحياة موقفاً عقلانياً معللاً ، لذلك يرتد الى صدفته ، يقبع فيها ويتقاسم مع الناس مواريث الأرض .

له الشعر ففيه دواء جراحه وعزاء روحه وسلواه ، له الليل بصمته الحلو ينسيه شقاءه حين يلفه ويتغشاه ، له الغيد يصوغها من الحانه ويحيلها من توهمه ونجواه له الوهم يهبه الغنى والمناصب والجاه :

« غني الخلق بالمناصب والمال ... له الله وهو بالوهم يغـــنى
وله النجم والسماء وما للناس ؟ ... للنـــاس ممالكات تفنى ! »

وبعد ... إن «قصائد دافئة» لفحة من لفحات الحرمان وعطاءٌ من نتاج الألم ، وكل مـــا فيها من مظاهر التحرق الجسدي وندا آت الجنس الجائع المكبوت ليس الا جـداول لو تتبعها القارىء لهدته الى الينبوع الأصيل الذي انحدرت منه وتفرعت .

إنها قصة حياة تتفتح في اجواء خاليـــة من الهواء والنور والشمس .

قصة كل شاعر ينبت من اوكار البؤس ليسمع الدنيا آهات المعذبين في أرض الله .

احمد سويد